فضيلة العلامة الكبيـر الشيخ عبد الوهاب دبس وزيت

فضيلة الشيخ هشام البرهاني

نسب الشيخ وأسرته:

ولد الشيخ عليه رحمة الله في دمشق عام 1311هـ. من أبوين كريمين في حي عريق بالعلم والفضل من أحياء دمشق يحيط بجامع التوبة الشهير ويعرف بحي العقيبة ونشأ في كنف والده الحافظ المتقن الشيخ عبد الرحيم بن عبد الله بن عبد القادر الذي ينتهي نسبه إلى العارف بالله سيدي عبد القادر الجيلاني قدس الله سره وقد اشتهرت اسرته بلقب الحافظ لأن معظم أفرادها كانوا من الحفظة الكرام.

طلبه للعلم ومشايخه:

وقد انصرف الشيخ من نعومة أظفاره الى طلب العلم وآثره على أعمال التجارة التي كان يمارسها والده الشيخ عبد الرحيم ذي الشهرة الفائقة في أداء آي القرآن وتجويدها ولما يبلغ بعد سن الحلم، ثم أعاد تلاوته على شيخ قراء الشام وعالمها النحرير الشيخ محمد سليم الحلواني وارث علوم القراءات عن والده شيخ القراء الشيخ احمد الحلواني الجد.

ولم يفته مع ذلك الاتصال بكبار علماء دمشق وشيوخ العلم فيها، فأخذ عنهم علوم القرآن والسنة والفقه والأصول والتصوف مع علوم الآلة، بهمة لا تعرف الكلال، وذكاء وفطنة ونجابة.

ومن هؤلاء الأعلام الشيخ محمود ياسين وقرأ عليه علوم العربية وعلوم السنة والشيخ امين العطار وقد قرأ عليه الأصول وعلوم اللغة.

والشيخ بدر الدين الحسني الذي حضر دروسه الخاصة والعامة ومنها الدروس التي خصصها لقراء كنز العمال كما قرأ عليه بمفرده في النحو العالي كتاب مغني اللبيب لابن هشام بعد الظهر من كل يوم في دار الحديث ومنهم الشيخ عبد الرحمن البرهاني الذي لازم مجالسته فيجامع التوبة وقرأ عليه كتاب الأذكار للإمام النووي والتقى بشيخ الزهد في عصره سليم المسوتي واجتمع بشيخ

الطريقة النقشية الشيخ عيسى الكردي وعنه أخذ هذه الطريقة وقد جرت بينهما محاورات علمية أدرك الشيخ الكردي منها نباهة الشيخ وعمقه في فهم النصوص واستنباط الأحكام فقال له: "عليك بالفقه يا ولدي" كما التقى بالشيخ عبد الحكيم الأفغاني وقرأ على الشيخ صالح الحمصي والشيخ عبد القادر الاسكندراني.

مع الشيخ عطا الله الكسم مفتي الديار الشامية:

ومع أن الشيخ رحمه الله لم يترك في الغالب أحداً من أعلام الشام في عصره إلا استفاد منه وقرأ عليه، ولكن لصلته بعلامة الشام وفقيهها ومفتيها الشيخ عطاء الله الكسم أثراً أعمق وأبلغ في حياته، فمنذ تعرف على العلامة الكسم رحمه الله تراءت للشيخ فيه علائم النجابة والفطنة.

ووضع يده على الملكة مع الاخلاص والأهلية مع صدق الطلب، فعرض عليه قراءة الفقه الحنفي مع أنه شافعي المذهب قد حصل أصول المذهب على الشيخ محمود الياسين والشيخ الجوبري لكن امتثل أمر الشيخ وبدأ معه قراءة حاشية ابن عابدين من أول كتاب الاجارة حتى أتمها ثم أعاد قراءتها عليه مرتين وبتعرفه على العلامة السم رحمه الله ابتدأت مرحلة جديدة في حياة الشيخ تعد بحق من أغصب مراحل حياته وأبعدها أثراً في تكوين ثقافته الفقهية ولا لبعد عن الحقيقة إن قلنا بناء على عمق هذه الصلة والتي دامت مايقرب من ثلاثين عاماً بأن الشيخ عطاء الله كان أستاذه الاول وصاحب الفضل عليه، لازمه لا تعرف الكلال وحضر دروسه الخاصة والعامة ولم يتخلف عنها إلا ليلة زفافه ومع ذلك فقد عاتبه على ذلك الشيخ، وتلقى على يديه جميع أنواع العلوم من تفسير وحديث وفقه وأصول ونحو وصرف وبلاغة وعروض ومنطق ولا غرابة ان يكون بعد ذلك من أبرز تلاميذ الشيخ وأقربهم إليه وأحبهم لقلبه، يباهي به ويعتز بانتسابه اليه، وقد كان يردد علينا رحمه الله قول أستاذه: "أنا لا أقرأ الدرس إلا لواحد أو لاثنين ويشير إليه" وأنه لا يبدأ الدرس حتى يكون تلميذه الشيخ عبد الوهاب حاضراً، وأنه كان ينوب عنه في دروسه في جامع يلبغا، وبإمامة الطلاب في مدرسة عنبر الثانوية، وقد توفي الشيخ عطا الله رحمه الله بعد ان اعترف شيخنا من معينة تركة علمية زاخرة أهلته لأن يكون مع ما يتمتع

به من قريحة فياضة وحافظة قوية ودقة متناهية وفهم ثاقب أمام الفقه الحنفي في بلاد الشام يرجع إليه في اموره ويستفتى في مسائله.

زهـده وورعــــــــه:

كان الشيخ رحمه الله زاهداً في الدنيا معرضاً عنها راضياً بالقليل قانعاً بالكفاف من العيش لم تفتنه بهارج الحياة ولم تأسره زخرفها التي تتزين للكثيرين بأثواب الطاعة وتتراءى للناظرين في أثواب شتى من أثواب الخير فقد ترك رحمه الله ما لا بأس به حذراً مما به البأس وإن أنس قوله "يا بني إن الشيطان يدخل على ابن آدم من سبعين باباً من أبواب الخير" وإن أنس لا أنس تلك المواقف التي كنت ترفض فيها أي نوع من أنواع الهدايا التي تقدم إليك عند انتهاء الحفظة والقراء عليك لقد عرفنا من هذا بأنك تريد أن تقيم الحجة على الناس الذين زهدوا في الآخرة المبذولة لهم بالمجان وآثروا الدنيا التي يبذلون لتحصيلها أعز ما يملكون فيما من ساعة علم في الدنيا إلا ويقابلها ثمن ومن استشارة طبية أو قانونية إلا وفي مقابلها ثمن وهم يقبلون عليها ويقتتلون في سبيلها على حين تبذل لهم علوم الشرع الحنيف وفتاوى الدين السمح وتعاليمه السامية بلا مقابل وهم عنها معرضون فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ومن مظاهر زهده رحمه الله أن رفض قبول أكثر الوظائف التي عرضت عليهم في دمشق وبيروت وغيرهما ومنها امامه مسجد دمشق الكبير "الأموي" وأمانة الفتوى في عهد الشيخ محمد الاسطواني الذي تولى الفتوى العامة بعد العلامة الشيخ عطاء الله الكسم عليه رحمة الله وكان أهمها وآخرها الفتوى العامة التي بقيت تنظر مدة عام أو أكثر الجهود المبذولة لا قناعة في قبولها، وقد سمعنا في تلك الايام يقول: إن كانت الفتوى سؤالاً عن حكم ومعرفة بالحلال والحرام فإني أقوم بها بطبيعة الحال ولم أغلق بابي في وجه سائل ولا مستفت ولا متعلم وإن كانت الفتوى مظهراً لاستقبال زيد ووداع عمرو وحضور حفل فإني ما أحب ذلك بل أكرهه.

ومن مظاهر وروعه في تحري الحلال أمه أمسك يده عن الأموال المشبوهة والأموال التي خالطها الحرام ولهذا لم يستجب إلا لدعوات خاصة أصحابه الذين يطمئن الى طيب طعامهم ولا يتعامل إلا مع من غلب على ظنه طهارة ماله وإذا عرفنا أننا في زمن كثرت فيه الشبهات وغلب

فيه الحرام والحلال أدركنا كم كان الشيخ عليه رحمة الله يعاني في انتقاء لقمته التي يأكلها وثوبه الذي يلبسه وفرشه الذي ينفقه، ولعله خشي أن لا يجد من يلتزم هذه القاعدة بعد موته فاشترى بماله الحر الحلال كفنه الذي سيصحبه في قبره فاختاره من الحلال الطاهر وأعده مع قبره ووصيته منذ زمن بعيد.

ومن مظاهر زهده في الدنيا وإعراضه عنها انه كان يكره الظهور في المحافل العامة ويمتنع عن الاختلاط بأصحاب الوظائف والسلطان الا من شذ من بعض الزيارات المعدودة في حياته قام بها لتحقيق مصلحة عامة ترجع نفعها لصاحب حق أو يرتفع بسببها ظلم أو عدوان أو يترتب عليها خير عام وكل هذه المظاهر تفسر لنا لم كان يرضى الشيخ عليه رحمة الله بالكفاف من العيش بالقليل من متاع الدنيا؟!وكيف كان يرى في غرفته المتواضعة التي اعتاد استقبال الناس فيها ولا تزيد مساحتها عن أربعة أمتار مربعة السعة الحقيقية التي لا يجدها في صالات الناس الكبيرة وفي القاعات المزدحمة في أنواع الفرش والأثاث، وقد كان بمقدوره أن يعيش في مثلها لو أراد فبين يديه من الطلاب والاحباب من يتمنى موافقة من الشيخ ليضع عن طيب خاطر المئات والألوف لكنه زهد فيما عند الناس ورضي بما عند الله.

الوظائف التي تقلب فيها:

لقد انقطع الشيخ عليه رحمة الله للعلم أفنى فيه عمره وقضى فيه حياته ولذلك لم يتقن الشيخ من أمور الدنيا غيره فما عمل حياته في تجارة ولا تقاضى شيئاً من أعمالها ولم يكن له شيئاً في زراعة ولا صناعة حتى البيت لم تشغل شؤونه من وقته إلا القليل فلم يكن همه غير خدمة القرآن والفقه وعبادة الله وطاعة الرحمن يشغل بها ليله ونهاره وينفق فيها ماله ويبلي فيها جسده فلم يجد من الوقت ما ينفقه في غير تعلم العلم وتعليمه ولا من الدنيا إلا القليل ولا من الجسد الا جلداً يستر به العظام والعروق ومن هنا رضي من الوظائف المتواضعة ما يتصل بهذا المبدأ فقد تسلم الامامة في مسجد "السلطان الزنكي" في شارع بغداد عند مدخل السمانة والخطابة في مسجد "فضل الله البصروي" تجاه السرايا في ضفة بردى ثم الخطبة والامامة في جامع "سعدي شركس"

بسوق القطن وأقرأ التجويد والفقه والأصول في مدرسة الجمعية الغراء والدرس العام الذي كان يعقده في مسجد بني أمية بين المغرب والعشاء من كل يوم.

دروسه وخطبه وفتاواه:

إن مكانة الشيخ الجليلة في ميدان القراءة والفقه فرضت عليه أمانة عظيمة وحملته مسؤولية كبيرة وقد أداها كما يؤديها الناصح الأمين والخبير المجرب فقام بمهمة التعليم والفتوى لا ينبغي بهما دنيا ولا سمعة وإنما ليرضي الله سبحانه وتعالى ويفوز عنده بمقام الداعين إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمبشرين بشريعة المصطفى صلى الله عليه وسلم وينال أجر المجاهدين في سبيله الصابرين المحتسبين.

فبالإضافة إلى الدروس التي كان يلقيها في المدرسة التجارية أولاً ثم مدرسة الجمعية الغراء ثانياً كان يعقد الدروس الخاصة التي كان جل انتفاع طلابه منها في الجامع الأموي وجامع سيدي شركس وجامع التوبة وفي بيته وبيوت أحبابه وطلابه وقد بلغ متوسط الساعات التي يلقيها يومياً على مدار السنة عشر ساعات في اليوم في أيام نشاطه وست ساعات في أيامه الأخيرة مع شدة المرض وضعف الجسم، وقد قرأ فيها كتباً كثيرة، في فنون متعددة منها القرآن والتفسير والحديث والسيرة والفقه والأصول والمنطق والنحو والصرف والتصوف والأخلاق وتشهد الغرفة المتواضعة في جامع التوبة تحت المئذنة كل يوم حلقات متتالية منصلاة الفجر إلى صلاة الضحى ومن بعد العشاء إلى ما شاء الله هذا يتلو بين يديه كتاب الله وذاك يقرأ النحو وأولئك يقرؤون الفقه والتفسير وهكذا حتى في السنوات الأخيرة وقد بلغ الجهد من الشيخ مبلغاً عظيماً يكفي عشر أعشار لموظف يعمل للراتب أن ينال بسببه مأذونيةوراحة ونقاهة لكن رحمة الله كان يتكلف الخطو ويحمل ثقل الثمانين عاماً التي قضاها في الطاعة والخير ليجلس امام طلابه ويقرر لهم مسائل العلم.

لا يترك شاردة ولا واردة إلا ويتكلم عنها ببساطة ووضوح وبعمق العالم البصير ويناقش طلابه ولا يرضى منهم مجرد الاصغاء والصمت بلا كتاب يتابع البحث فيه ويكره حضور طالب قبل مطالعة الدرس وتفهمه.

وإذا قيل له لو أرحت نفسك يا سيدي هذا اليوم قال والله ما عندي على التقرير من قوة لكني أطلب ألا ألقى الله إلا وأنا طالب علم.

ولا ينسى التوجيه مع العلم والإرشاد مع الفهم ولقد كانت سير العلماء والصالحين من مشايخه ومشايخ مشايخه وتراجم الأولياء والعارفين وأقطاب العلم في كل مكان على لسانه في كل مناسبة وقد كان الشيخ في هذا الميدان فذاً فريداً لا تمل له حديثاً ولا تسأم معه مجلساً ينير لك جوانب رائعة من حياه علماء الاسلام ومشاهير العلم والصلاح وما رأينا فيما عرفنا له مثالاً، وقد كنا نسجل عنه نتفاً من هذه التراجم ونقف بكل أسف عاجزين أمام تسجيل العديد منها.

أما خطبه فقد كانت قصيرة مركزة تكاد تنحصر في موضوعات الفقه ومسائله وقليل من التفسير والحديث ولهذا الغرض عشاق ومحبون يقصدون الشيخ من كل مكان ويلازمون الاستماع إليه فيما يعرضه عليهم فيها من موضوعات العلم ومسائله، وقد تكون جواباً لسؤال أو إيضاحاً لمشكلة تثور في حينها أو تصحيحاً لخطأ عام وفهم سقيم شائع. وأسلوب الشيخ في ذلك أسلوب الفقيه الورع والناقد الحكيم والمبلغ الأمين واضطرته ظروفه الصحية في سنواته الأخيرة إلى الإمساك عن مهمة الخطابة وأناب في ذلك بعض طلابه الذين تدربوا على أسلوبه ونهجوا نهجه منهم الأخ الفاضل السيد عدنان شيخ الحدادين والأخ الفاضل موفق الطباع والأخ الفاضل السيد مصطفى الحمصي وأما الفتاوى فقد كانت ترد عليه من عدة مصادر.

أولها: أمانة الفتوى التي كانت تستوضح رأيه في عديد من المسائل وحكمة على عدد من الكتب المعدة للنشر والطبع.

وثانيها: مذكرات ومباحثات حول كثيرة من القضايا التي تعرض للكثير من طلاب العلم وأهله في دمشق وسائر مدن الجمهورية العربية السورية وغيرها مشافهة أو كتابة وقد كان رأيه فيها الفصل وقوله الحكم ولا نزال نذكر كيف أعلن العلامة المرحوم الشيخ محمد الحامد رحمه الله تعالى على منبره في حماه رجوعه عن فتوى قال بها إلى رأي انتهى إليه الشيخ عليه رحمة الله، وقد

حضرت له مجلساً في أيامه الأخيرة وقد كان العلامة المرحوم استاذنا الشيخ أبو الخير الميداني يعوّل عليه في الفقه.

وثالثها: إجابات على المسائل التي تطرح عليه كل يوم في البيت وفي المسجد والطريق ولا يكاد يخلو منها يوماً حتى في أيامه الأخيرة وفي مرض موته.

والطابع العام الذي يميز فتاواه بأنها تأخذ بالحزم والعزم من الأمور فما كان عليه رحمة الله يميل إلى الترخيص ولا يفتي إلا بالمشهور من مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه وقد كان حاضر البديهة محيطاً بمسائل المذهب أصولاً وفروعاً لا يفتي إلا عن يقين وعلم ولا يمنعه ذلك من الرجوع إلى أمهات الكتب التي تضمها مكتبته المتواضعة للتثبت وزيادة العلم كما لم يمنعه ذلك مؤانسة طلابه النابهين وعرض فتاواه عليهم شحذاً لأذهانهم وإثارة لهممهم.

أما دروس القرآن فقد كان انتفاع طلابه فيها عظيماً للغاية وكانت له عليه رحمة الله فائقة في توجيه الطلاب إلى مخارج الحروف وإتقان الاداء والتجويد ولا يتساهل في شيء منها وقد بذل في ذلك جهوداً كبيرة يدركها كل من عرف الشيخ أو قرأ عليه بذلها خلال خمسين عاماً أو أكثر أخذت الكثير من وقته وراحته ونومه ليطبع طلابه بطابعه الخاص الذي تميز به دون سائر القراء واشتهر فيه بين الخاص والعام وكان له طبعاً من غير تكلف وسليقة من غير تقعر لا في إداء القرآن وحده بل في دروسه وأحاديثه حتى العادي منها مع أهله وإخوانه وأبنائه وطلابه وقد عرفت قراءته عند الكثيرين بالقراءة الدبسية نسبة إلى لقبه المشهور "دبس وزيت" وقد أخذ عنه فن الإداء والتلاوة جمع غفير من الطلاب الذين تصدروا لنفع الخلق وخدمة كتاب الله في حياته وبعد موته ومنهم فقيد الشام الأستاذ المرحوم الشيخ عبد الرحمن الطيبي رحمه الله تعالى الذي لم يمنعه جلال العلم ولا تقدم السن من الجلوس بين يديه يجود ألفاظ القرآن ويحسن أداءه عليهما رحمة الله تعالى ورضوانه.

إجازاته وآثاره العلمية:

يحتفظ الشيخ في وثائقه الخاصة بثلاث إجازات فقط إحداها من علامة الشام المحدث الأكبر الشيخ محمد رضوان بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وبدلائل الخيرات وثالثها من علامة

الشام الشيخ وأستاذه الأكبر الشيخ عطاء الله الكسم عليه رحمة الله إجازة فيها بالمعقول والمنقول وبكل ما يجوز له روايته من علوم الشريعة المطهرة ولم يكن لدى الشيخ إجازة في قراءة القرآن لأنه لم يقرأ إلا رواية حفص وقد أعتاد العلماء عدم إعطاء الإجازة فيها ولذلك لم يعطها لأحد من طلابه.

ولما كانت الدروس العامة والخاصة مستغرقة لكل وقت الشيخ لم يتح له من الفرص ما يوجه للتأليف والتصنيف ولذلك كانت آثاره العلمية قليلة لا تعبر تعبيراً صادقاً عن مكانة الشيخ العلمية وقد كان بوسعه أن يترك عدداً من المجلدات الكبيرة من الفتاوى والقضايا التي كانت

تعرض عليه خلال أربعين عاماً أو أكثر لو جمعها في مكان واحد أو وجه الهمة لطبعها وانتفاع الخاصة والعامة بها، لكن تحضير الدروس والاستعداد لها وقد كانت عادة الشيخ ألا يقرأ الدرس قبل الاستعداد له ومواصلة قراءة القرآن وتلاوته آناء الليل وأطراف النهار أخذ وقته ولم يترك له فرصة للراحة فضلاً عن التأليف والنشر.ولهذا لم يترك لنا على جلال قدره ورسوخ قدمه في العلم إلارسالة في علم التجويد طبعت ووزعت أكثرمن مرة أعدها الطلاب بالمدرسة التجارية يوم كان يدرس فيها.

وتعليقات بخطه مفيدة ومهمة على كل من حاشية الطحطاوي والهدية العلائية ورياض الصالحين وأجاب على أسئلة وجهها إليه الأستاذ الشيخ أحمد البيانوني من حلب وقد طبعت الاجابة في كتاب "الاجتهاد والمجتهدون" كما شارك أستاذنا المرحوم الشيخ محمد سعيد البرهاني في الإشراف على رسائل جمعية العقيبة الخيرية في الصلاة والصوم والزكاة والحج وغيرها وأستاذنا الجليل الشيخ عبد الكريم الرفاعي في الإشراف على كتاب الشفاء للقاضي عياض الذي يحققه الأساتذة محمد أمين قره علي، أسامة الرفاعي، جمال السيروان، عبد الفتاح السيد نور الدين قره علي.

في أعمال الخير:

لقد تمتع الشيخ عليه رحمة الله بثقة الكبير والصغير وكان محط الأنظار في كل مكان ولو أعطى كل الناس كل مايريدون من وقته وجاهه لما خلا عمل خير من سمه ولا بقي أحد إلا استفاد من

سمعته لكنه آثر القرآن والعلم ووقف نفسه على خدمة الطلاب والمتعلمين ولم ينقطع مع ذلك عن أعمال الخير والبر ولا زهد في هذا الميدان من الخدمة فقبل الدخول وسيطاً في حل مشاكل كثيرة عائلية وغيرها وترأس جمعية المدرسة التجارية بعد انتقال العلامة المرحوم الشيخ أبي الخير الميداني وسعى في تجديد بناء عدد من المساجد في قرى دمشق وضواحيها منها جامع حران العواميد، وجامع البلالية قبل قرية حران وجامع زملكا وشارك أستاذنا المرحوم الشيخ محمد سعيد البرهاني في تحقيق عدد من الاصلاحات في مسجد التوبة وقد قبل عضوية الهيئة الاستشارية لجمعية العقيبة الخيرية ثم تولى رئاسة هذه الهيئة بعد انتقال الشيخ الميداني عليه رحمة الله، وقد كانت يده مبسوطة بالخير للفقراء والمحتاجين يمدهم بالمساعدة ويحل كثيراً من مشاكلهم ويعطف على أبنائهم وبناتهم خصوصاً في الفترة الأخيرة من حياته التي ما كان يرد فيها سائلاً ولا يقطع بره عن محروم.

وجوه أخرى من الطاعة والبر أخذ بها نفسه:

كانت للشيخ مع صلته العميقة بعلوم الشريعة المطهرة عقيدة صادقة بعلوم الحقيقة وأحوالها واحترام ملحوظ للأولياء والعارفين كما كان عليه السلف الصالح من علماء الأمة وفضلائها وقد سبق أن رأينا كيف تلقى علم التصوف عن الأكابر من علماء عصره وخصوصاً العلامة الشيخ أمين سويد والعارف بالله المرشد الشيخ عيسى الكردي وقد انعكس ذلك عن آرائه وسلوكه وألزم نفسه فضلاً عن تلاوة القرآن بشيء من الأوراد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وقد كان سعيداً بمجالس الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم التي تعقد دورياً صباحاً في أحد مساجد دمشق العامرة وقد كان يحضرها بين الفترة والأخرى ولولا دروسه الخاصة وارتباطاته الكثيرة لما فاته منها شيء وقد ودع الدنيا قبل وفاته بأيام بحضور مجلس الاثنين الذي عقد في جامع الفردوس وقد كان يقرأ لطلابه بعض كتب القوم التي تعني بتهذيب النفوس وإرشادها إلى أقوم السبل كما كان حريصاً على زيارة أضرحة الأولياء والعارفين في كل نوع وخاصة مقام الشيخ الأكبر قدس الله سره والشيخ أرسلان الدمشقي وسيدي حياة الحراني فضلاً عن زيارة قبور والديه ومشايخه وأكابر الفضلاء وخصوصاً الشيخ عطاء الله الكسم والشيخ بدر الدين الحسني والشيخ عبد الحكيم الأفغاني والشيخ محمد أمين عابدين والشيخ سعيد الحلبي والشيخ علي الدقر والشيخ

سليم المسوتي كما كان يتعهد قبورهم ويحافظ وكان آخر ذلك أمره ببناء قبر الشيخ عبد القادر الإسكندراني وقبر الشيخ عبد الحكيم الأفغاني وقبر الشيخ علاء الدين الحصكفي كما كان حريصاً على إقامة جدار يحصن تربة الدحداح صيانة لها من انتهاك الأطفال والفساق لحرمتها لكن المنية أدركته قبل تحقيق هذه الأمنية.

أما محبته للنبي صلى الله عليه وسلم فقد كانت ظاهرة عليه بادية في أقواله وأحواله ولا غرو فقد تأثر في ذلك بشيخه العلامة الكسم عليه رحمة الله الذي كانت له مجالس خاصة مع أخيه في الله الولي الفاني في محبة النبي صلى الله عليه وسلم الشيخ عارف عثمان ولا غرابة بعد ذلك أن يحرض على أداء الحج في كل عام مع زيارة النبي صلى الله عليه وسلم وواظب على ذلك مواظبة لا تكاد تنقطع ولما أقعدته العلة عن القيام بذلك بنفسه في آخر أيامه كتب إلى العلامة العارف بالله الشيخ إبراهيم الختني عالم المدينة المنورة ليقوم بها نيابة عنه وقد قام بها عنه مرتين قبل أن ينتقل ألآخر إلى جوار ربه ويدفن بالبقيع.

لمحات من أخلاق الشيخ وبعض صفاته الخلقية:

الوقت رأسمال الانسان وكل لحظة تذهب منه سدى جدير بها ألا تحسب من لحظات العمر وقد عرف الشيخ كيف يستفيد من وقته إلى أبعد حد فأخذ نفسه بنظام صارم ضمن حلقات

متكاملة من العمل الدائم والجهاد المتواصل فقد عرفه الليل قائماً ورافقه النهار دارساً ومدرساً فلا غرابة بعد ذلك أن يطالعك من الشيخ جسد نحيل يميل إلى الطول، وأن تقتحم عيناك فيه ضعفاً عاماً يغلب عليه ونحافة لم تترك له أكثر من ثلاثين كيلو غراماً من الوزن وقد أحتاج آخر أيامه لعكوفه الدائم على المطالعة والقراءة إلى الاستعانة بالنظارة الطبية مع قوة ظاهرة في حاستي السمع والشم وذكاء وفطنة وحافظة قوية لا يكاد ينسى معها شيئاً، وقد كساه الله ثوباً ونفساً زكية كريمة تتسع لأحوال العامة والخاصة ويأنس بها القريب والبعيد مع تواضع وأدب وما رأينا الشيخ عليه رحمة الله يثور ويغضب إلا لانتهاك حرمات الله وفي قول الحق من أمر بمعروف ونهي عن المنكر ومن أدبه وتواضعه أنه كان يعد نفسه من العوام وماسمعناه في عرض آراء العلماء

ومذاهبهم يقول:دنا على فلان كذا:بل كان يقول وجوابنا عليه كذا وكان ينكر من يدعي الاجتهاد بغير علم ويتصدر للفتوى على جهل.

وكان هادئاً رزيناً لا ينام من الليل إلا قليلاً ولا يأخذ من الزاد إلا يسيراً.

أيامه الأخيرة ووفاته:

كان عليه رحمة الله يشكو علة قديمة في صدره عانى منها طويلاً وقد الحت عليه حتى طرحته في الفراش وانقطع معها عن كل نشاط علمي وكان مثالاً للمؤمن الصابر المحتسب الراضي لقضاء الله تعالى وقدره، وقد وجد في القرآن الكريم عزاءه وسلوته وفي آياته سبيلاً للتخفيف ولما أحس بدنو أجله، وآخر أيامه في الدنيا أصبحت معدودة امتنع عن تعاطي الادوية وقال لم يعد دوائي عندكم بل عند ربي في الجنة، وازداد إقباله على تلاوة القرآن والصلاة والسلام على حبيبه محمد عليه الصلاة والسلام واشتد اهتمامه بأهل الحاجة والفقراء فأكثر من السؤال عنهم ومن برهم والإحسان إليهم.

وفي صبيحة يوم الأربعاء الواقع في العاشر من رمضان المبارك عام 1389 استيقظ الشيخ مبكراً فأدى صلاة الفجر وانصرف إلى تلاوة كتاب الله حتى صلى الضحى وأكثر من ركعاتها ثم عاد إلى تلاوة القرآن وخصوصاً سورة الرعد التي كررها مراراً وقد كانت تتراءى للشيخ في أثناء ذلك صور عدد من المشايخ الذين أحبهم وأخذ عنهم وخاصة صورة الشيخ عبد الحكيم الأفغاني التي تطمئن نفسه بالنظر إليها فإذا غابت حملق في المكان الذي رآها فيه وسأل:أين ذهب الشيخ عبد الحكيم حتى أذن الظهر فأجاب المؤذن إجابة السنة ثم صلى الظهر وعاد إلى تلاوة كتاب الله إلى أن فاضت روحه الطاهرة إلى بارئها لتلقى الأحبة محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه ولتخلف ورائها ظلمة في حياة الناس عامة وفي حياة طلابه وأحبابه خاصة لا ينيرها إلا كوكب جديد يسطع في سمائهم ويشرق في حياتهم وقد نعته إلى العالم الإسلامي جمعية العقيبة الخيرية ورابطة العلماء وأهله وذووه وكان لجنازته احتفال مهيب خرجت فيه دمشق مع من وفد من أهل العلم والفضل من المحافظات وراء نعشه للصلاة عليه في المسجد الأموي ثم سار الموكب إلى تربة الدحداح ليدفن على والده الحافظ الشيخ عبد الرحمن الحافظ وقد أبنه عند القبر كل من

الأفاضل الأستاذ محمد جهاد البرهاني والأستاذ الشيخ محمد عوض والأستاذ الشيخ حسين خطاب والأستاذ الشيخ أحمد نصيب والأستاذ محمود الحامد والأستاذ محمد الزعبي والأستاذ خالد حبيب والأستاذ أسعد الصاغرجي وتقبل أهله وطلابه وأحبابه التعزية بوفاته ثلاثة أيام في جامع التوبة رحمه الله وعوض الاسلام والمسلمين خيراً وجعل البركة والخير في أبنائه وطلابه ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.